



أخيرا «تحررت» منبج السورية من تنظيم «الدولة الإسلامية» (داعش)، لكنها بالتزامن تحررت من أهلها. لم تعد المدينة صالحة للعيش فيها، إذ نال القصف الجوي لـ«التحالف الدولي» من أجزاء واسعة فيها، أبنية وأسواقا ومدارس ومساجد ومؤسسات خدمية، وما لم يدمره الطيران الحربي كان «داعش» قد فجره أو عمل على تلغيمه. وبعد أكثر من عام ونصف العام لا تزال عين العرب/كوباني مهجورة لا يرى السكان فائدة في محاولة رفع أنقاض حتى الأبنية المتضررة جزئيا، ومثلها لا يستطيع مواطنو الفلوجة أو الرمادي وأطرافهم، العودة لبعث الحياة مجددا في منازلهم وشوارعهم وحقولهم.وها هي منبج، الضحية الجديدة، تنضم إلى ركب المدن المنكوبة، وقد تتبعها الباب وجرابلس القريبتان منها. ورغم نسبة أقل من الدمار العماني في ديالى وتكريت إلا أن التدمير النفسي بالترهيب أو بالإهمال، يجعل عودة الحياة إلى رقم من طبيعتها ضربا من المستحيل.

التحرير يعني التدمير. تلك هي المعادلة. ومؤداها أن لا تقوم قائمة لهذه الحواضر قبل مرور روح طويل من الزمن، وأن يعود سكانها عصورا إلى الوراء، فمن يحررونهم قد يشردونهم أو يحيلونهم إلى وضع أسوأ من ذلك الذي فرضه «داعش» عليهم. ومن هم هؤلاء المحررون؟ نعم هناك جيش حكومي في العراق، ويفترض أنه هو الذي يخوض المعارك، لكن هناك بذيله ميليشيات «الحشد الشعبي» وهي لم تتوان عن حرق البيوت بعد نهبها في الفلوجة وقرها القريبة، ولا عن التنكيل بالهاربين من الموت أو إخفاء المئات منهم.

أما في سوريا فسمى المحررون «قوات سوريا الديمقراطية»، وقد أصطنعوا اصطناعا من ميليشيات الأمر الواقع، ووجد

الأكراد في «داعش» فرصتهم لتحقيق انساقهم وإقامة إقليمهم. ثمة مشترك بين هؤلاء المحررين وأولئك، إنه الحقد المذهبى أو القومى الذى لا يضاهيه سوى الحقد الذى كان ولا يزال المحرك الرئيسي لـ «داعش».

معارك التحرير هي نمط الحروب التي يغلب عليها التجهيل والتعتيم، هي مقتلة مفتوحة ولا يعرف سوى القليل النادر عن مدى الإذلال والتنكيل والاحتقار للإنسان فيها. فكل يعلن أن هناك طرفاً يتقدم آخر يتراجع، أما كيف وبأى ثمن فلا أحد يتبرع بأى معلومة. لم تعلن ميليشيا الأكراد ولا ميليشيات «الحشد» شيئاً عن كلفتها البشرية، مثلها مثل «داعش» الذى لا يكاد أى من مهووسيه يحرك سكيناً بيده في بروكسيل أو برلين حتى يكون جاهزاً لتبنيه غير أنه يستنكر عن ذكر خسائره وكأنه يعامل مقاتليه على أنهם مجرد أرقام، مثلاً يعاملهم محاربوه.

لم يستطع مهاجمو منبج إحراز تقدم فيها إلا بضربات جراحية نفذها طيران «التحالف الدولى»، لكن هذه الضربات قتلت عشرات من المدنيين في التوخار والغندورة. وأفاد نشطاء من جهود من ينجبون أن عائلات بأكملها لا تزال تحت الأنقاض. في الوقت نفسه كان «داعش» يقدم على إعدامات لمدنيين أيضاً مشتبهاً بتعاونهم مع القادمين لتحريرهم. ورغم وجود مقاتلين عرب في صفوف «قوات سوريا الديمقراطية» إلا أن الأكراد المهيمنين عليها لم يراعوا حلفاءهم، فقد شكا هؤلاء من تهجير قسري للعرب من نحو عشر بلدات وقرى مجاورة لمنبج ولا تقطنها سوى قلة من الأكراد..

وهكذا، فيبين «داعش» من جهة و«التحالف» والأكراد في المقابل يدفع المدنيون ثمناً باهظاً من دمائهم، ومن حاضرهم ومستقبلهم.

العرب القطرية

المصادر: